الروائية دلال خليفة:

خيارات السرد

حوار - سعيد خطيبي

دلال خليفة واحدة من التجارب الأدبية الأكثر حضوراً في قطر، حيث صدرت لها عديد الأعمال، منها «إنسان في حيز الوجود» (مسرح)، «أنا الياسمينة البيضاء» (قصص) وأربع روايات، منها «أسطورة الإنسان والبحيرة» و«دنيانا.. مهرجان الأيام والليالي» اللتين صدرتا، منذ فترة قصيرة، في طبعة ثانية. تتحدث الكاتبة في هذا الحوار عن بعض انشغالاتها الأدبية وميولها الروائية..

في روايتَيْ «دنيانا» و«أسطورة الإنسان والبحيرة» يبرز صوت المؤلف بشكل الراوي – العالم، هل هي رغبة منك في عدم التورط في الذاتية؟

- لا طبعاً، فالأدب عملية حرة تسوغ لكاتبها أن «يتورط في الذاتية» إن أراد، بمعنى أن الكاتب لا يُفترَض أن يأبه للوم أو انتقاد عندما يكتب، ومن ثم فهو يكتب بحرية بما تمليه عليه طبيعة عمله الأدبي، وبما يخدم هذا العمل، فإن اقتضى العمل أن تأتي رواية ما يحدث أو ما يدور في ذهن شخصياته على لسان إحدى هذه الشخصيات نرى هذه الشخصية تروي من وجهة نظرها، وإن اقتضت أن تروى القصة بشكل أكثر حيادية يتولى الكاتب رواية ما يجري، ولي أكثر من عمل يقدم من خلال رواية الشخصية الرئيسة في العمل.

تتداخل الأصوات النسائية في رواياتك. هل هو انتصار لصوت الهامش؟

- أولاً، أرفض رفضاً باتاً أن توصف المرأة بالهامش لأنه وصف لا يليق بها ولا تستحقه مهما خفت صوتها، إن كنت ترى أن صوتها خافتاً (لأنني لا أرى ذلك). ومن هنا المنطلق فتعدد الأصوات النسائية في روايتيّ هاتين وفي أعمالي الأدبية عموماً ليس من هذا الباب، فكل شخصية رجالية كانت أم نسائية لا بد وأن تشغل مكاناً ما في «الأحجية» التي ستكتمل في النهاية..

إن ما أثار دهشتي الأدبية وجعلني أكتب الأسطورة هو تولي كثير من الفاسدين لزمام كثير من الأمور بلا أي أساس، ولم يكن «تهميش» المرأة مما أثار دهشة أدبية لديّ في أيّ من هذين العملين، ولكن القارئ له أن يستخلص من العمل ما يشاء.

تعيش شخصيات «أسطورة الإنسان والبحيرة» حالة عدم ثبات سيكولوجياً، غير قادرة على تحديد طبيعة الروابط التي تجمعها مع الآخر، كما أن الحب بالنسبة لها ليس بالضرورة مرادفاً لقناعة شخصية (حالة مختار وسلمى مثلاً). هل هذا الاضطراب الداخلي الذي تعيشه شخصيات الرواية نابع من حالة وتجربة شخصيتين؟ أم أنه يمثل صورة مصغرة عن واقع مجتمعاتي؟

- شخصيات الأسطورة تعي جيداً ما هي بالنسبة للآخر، وتتصرف وفق ما يناسبها وما تستطيع القيام به وفق ظروفها، فمثلاً كل صديق من أصدقاء مختار يعرف مكانته وحجمه تماماً لدى مختار ويعرف أن هذا الأخير استغله، ولكنه عندما يكتشف ذلك يكون الأوان قد فات، ويجد أنه قد وضع نفسه في فخ لا يستطيع الخروج منه بسهولة من دون أن يتعرض للإيذاء، وهو موقف يعايشه كثير من الملتفين حول الطواغيت عادةً إلا أنه أكثر دراماتيكية في الرواية، لأنها رواية. أما بالنسبة لحالات الارتباط الزوجي والعاطفي في الرواية فهي أيضاً نراها في الواقع، فهناك زواج المصالح وهناك الحب الحقيقي مثل الذي ربط بين هند وعمرو وإن بدأ ارتباطهما بشكل غير طبيعي. أي أنك تستطيع أن تقول إن الرواية كغيرها من الروايات تمثل الواقع الاجتماعي فعلاً إلى حد ما. ولكنه ليس بالضرورة مجتمعنا بالذات، إنه المجتمع العالمي الذي نرى فيه كل هذه النماذج.

ثم لا أعلم لماذا هنا الهوس عند كثير من الصحافيين والقراء بربط أبطال العمل الأدبي بكاتبه، مع أن الكاتب لكي يكون كاتباً لا بد أن يكون لديه عقل بانورامي- إن صح التعبير- يؤهله للكتابة عن حالات كثيرة من دون أن يعايشها كتجارب شخصية.

تتصل الحقيقة بالخرافة في رواية «أسطورة الإنسان والبحيرة»، وتتقاطعان فيما بينهما على أكثر من صعيد. فالخرافة تعتبر مكوناً أساسياً في المجتمعات الشفوية التي تتحدث عنها الرواية، والكتابة والأدب المكتوب وظيفتهما هي الحد من اتساع دائرة الخرافة.

- هناك خرافة، وهناك خرافة.. لم أتحدث في أسطورتي عن السحر والشعوذة والوحوش والتشاؤميات واستجداء الحظ من التمائم وما إلى ذلك. مثل هذه الخرافات غير محمود، أما إذا وظفت القالب الأسطوري لتوضيح رأيك في ظاهرة ما، فهو ليس بالخرافة التي ينبغي محاربتها. كما إن المجتمع الذي تتحدث عنه الأسطورة ليس شفوياً كما تصفه إن كنت تعني الأمية بهذه الصفة. وكوني وظفت الطبيعة الأسطورية للوصول إلى نتيجة ما لا يعني أبداً أنني أردت تقديم مجتمع الرواية كمجتمع جاهل. كما أن العالم بأسره يعود بين الفينة والفينة إلى الأشكال الأسطورية والخرافة فيقدمها من خلال الأدب أو السينما لأنها توفر للكاتب من الأدوات ما قد لا يوفره الواقع.

في الرواية نفسها نلتمس كثيراً من الإسقاطات السياسية. كما لو أن الرواية ما تزال راهنة. هل سقوط الملك القديم وصعود ملك شاب هما إشارة منك لانتصار الجيل الجديد على الجيل السابق، رمز الخبرة وحسن التدبير؟

- ما يحدث في الوقت الراهن لا تشمله الأسطورة إلا في الجزء الأخير منها، ربما، فما فعله مختار الشاب كان خطأً فادحاً حيث اقتاده الوهم إلى الانقلاب على ملك عادل. أما مقاومة صالح الحداد (الشيخ المسن) لمختار ومحاولته إنقاذ ما يمكن إنقاذه من البلاد وإخراج ابنه من السجن، أي الانتصاف للمظلومين، فهو ما يوازي - إلى حد ما- بعض الحركات التصحيحية التي يقوم بها الشباب الآن في بعض الدول.. ولم لو يكن لصالح الحداد دافع قوي للحركة المضادة لقام بها شباب. وعموماً فهناك من حمل راية الجهاد وتصحيح الأوضاع على أرض الواقع من غير فئة الشباب مثل المجاهد عمر المختار، فالرغبة في الإصلاح غير مرتبطة بالسن دائماً. وعموماً فالرواية لا ترتكز بالدرجة الأولى على هذا الفعل السياسي لا الظالم ولا التصحيحي، بل تستخدمه لتوضيح ظاهرة الوهم.. فالمهم لديّ ككاتبة للعمل هو تبيان أن كثيراً مما يحدث في العالم قائم على الوهم، وأن ما يقوم على الوهم كثيراً ما يعقبه تصحيح ما.

جاءت نهاية الرواية مفتوحة. كيف تعرّفين شخصياً وظيفة الرواية؟

- الوظيفة الأولى للرواية في نظري هي أن تجعلك كقارئ تتوقف قليلاً لتتأمل وتفكر، لا يهم أن توافقني الرأي ككاتبة لعمل ما، ولكن يهمني أن تفكر قليلاً، فالتوقف لتأمل الحياة (التي تقدم الرواية صورة مصغرة عنها) يحفز الفكر. وربما تتوصل إلى نظرياتك الخاصة وإن اختلفت مع كاتبها.. ثم هناك الوظيفة الأخرى وهي الإمتاع..

تعتمدين في «أسطورة الإنسان والبحيرة» على السرد الخطي. هل يمكن أن تتخذ تجربتك في الكتابة الروائية مستقبلاً أبعاداً وأنماطاً أخرى؟

- تجربتي الروائية والقصصية ليس لها نمط واحد، ولو قرأت لي أعمالاً أخرى لرأيت ذلك، وكذلك الروايتان اللتان قرأتهما لي مختلفتان في أسلوبهما وطريقة سرد الأحداث فيهما، فالأسطورة مكتوبة بالشكل التقليدي الذي تُحكى به

الحكاية، وحتى لغتها راعيت أن يكون فيها بعض المفردات والتراكيب اللغوية التراثية لأني أردت أن يكون هنا العمل مقنعاً كأسطورة، وأن يعيش القارئ في هذا الجو الأسطوري. أما في دنيانا فالسرد ليس خطياً بالشكل المعروف للسرد الخطي على الإطلاق، فجزء منه يأتي كحوار مفترض، وجزء يأتي كحوار ذاتي، وجزء منه يأتي كالحلم، وهكذا...، أما الزمن فهو لا يبدأ من بداية القصة إلى نهايتها بل تتخلل أجزاء من المشهد الأخير الرواية من البداية إلى النهاية حيث تختتم به الرواية. وأخيراً تختلف دنيانا عن الأسطورة في أن نهايتها ليست مفتوحة، وهي المرة الوحيدة التي كتبت فيها رواية ليست مفتوحة النهاية. ذلك أنني أردت أن أجرب النهاية السعيدة، وكذلك لأن هذه هي النهاية التي تناسب هذه الرواية.

لا أعلم لماذا ربطت بين العملين واضطررتني إلى أن أشرح عملي وهو ما لا أحب أن أفعله عادةً.

نجد في «أسطورة الإنسان والبحيرة» شخصيتين متناظرتين هما عمرو وسفيان. من هو نظير الروائية في النص نفسه؟

- سفيان شخصية خبيثة وبرجماتية، وهي متبلدة الحس، وتقريباً بلا ضمير، ولا أعرف كيف خطر على بالك أن تسألني إن كنت أقارن نفسي به ولو من بعيد! أما عمرو فهو شخصية واعية لها ضمير حيّ ومتفانية في الإخلاص لما يمليه عليها هذا الضمير من مبادئ لا تحيد عنها حتى لو أدى ذلك إلى سجنها طوال العمر، ومثل هذا التفاني لما تمليه المبادئ نوع من المثالية التي لا تكاد ترى في الواقع، ولم أر لها مثالاً إلا في شخصية تاريخية لا أحب أن أنكرها الآن خوف ألا أوفيها حقها الكامل في سياق ضيق مثل هنا. وهو، أي عمرو، يؤمن بأهمية اللجوء للعقل لحل الأزمات بدلاً من العنف وإراقة الدماء، وهنا ما أؤمن به بشدة، ولكني أيضاً لا أقارن نفسي به لأنه شخصية رمزية ترمز للفكر بشكل عام، وهو كما قال أحد النقاد، أقرب إلى الفكرة منه إلى الإنسان خاصة أنه - وهو يمثل الفكر والتعقل- يظل سجيناً إلى نهاية الرواية.

بالنسبة لك، هل الأهم في الكتابة الروائية هي مصائر الشخصيات أم بنيتها، ومكوناتها النفسانية والذهنية؟

- عن نفسي، عادة أهتم بالجانب الفكري والنفسي للشخصيات الأدبية التي أكتبها أكثر من الجانب الجسدي والغرائزي والاجتماعي وأكثر من الحدث، الذي يأتي في معظم أعمالي كخطوات لبرهنة فكرة ما، أو تستطيع أن تقول نظرية ما في ذهني، وأعتقد أن ذلك عُرف عني عند من قرأ أعمالي.

ولكن أحياناً تكون للعمل الأدبي طبيعة معينة تجعلنا نهتم أكثر بالحدث أو أن نهتم بالشخصية كإنسان له فكر ونفسية وما إلى ذلك.. رواية «أسطورة الإنسان والبحيرة» مثلاً لها طبيعة مختلفة، فالحدث هنا يأتي كإثبات لنظريةٍ أن من نراهم في مناصب كبيرة، وخاصة السياسية، منها قد لا يكون مؤهلهم أكثر من أوهامهم الخاصة، ومن هنا يكتسب الحدث أهمية كبيرة لأنه من خلال تداعيات الأحداث وتطورها تُبنى النظرية وتبرهن، لذلك اقتضت الضرورة أن يكون الحدث في البؤرة، ولو أني حرصت على أن تكون الشخصيات مرسومة بما يكفي لتجعل القارئ يتعاطف معها سلباً وإيجاباً.

عموماً فمصائر الشخصيات أو الأحداث هي ما يصنع الحكاية (التي تقوم عليها الرواية أو القصة) بالدرجة الأولى، ولكن مكوناتها النفسية أيضاً شديدة الأهمية، فلو أتينا بسلسلة من الأحداث المترابطة التي تنتهي بفكرة ما فقد أتينا بالحكاية التي تصنع القصة والرواية، أما إذا أولينا الشخصيات المزيد من الاهتمام من الناحية النفسية والفكرية واقتربنا بها من القارئ وجعلناه يتعاطف معها تماماً وكأنه يعايشها فقد أتينا برواية حديثة.